من ثنايا التاريخ

استيلاء الجيوش العربية

على جنوب فرنسا

امتد سلطان العرب فى أوائل القرن الثانى للهجرة أى حوالى سنة ٧٢٠ ميلادية ، إلى الأقاليم الجنوبية من فرنسا ، فكانت ولاية الأندلس تبسط سلطانها على جسكونيا ، ولا نجدوك وشطر فسيح الأرجاء من إقليم سافوى ، وكانت هذه الولايات الفرنسية العربية تستمتع بقسط وفير من العمران والحضارة لم تره قط فى عهود القوط والفرنجة ؛ فازدهرت وأينعت ورفرف عليها لواء العدل الذى نشره العرب أينما حلوا واستعمروا ، ولكن بعد هذه الأقاليم عن قلب الأمبراطورية العربية ، وصعوبة المواصلات بين السلطة العليا للحكم ، والسلطات الفرعية أضعف من شوكتها وحط من هيبتها وبخاصة حين تسمر حكام هذه الولايات ورؤوس الجند فيها باذ (القيروان) وهى الرياسة المركزية لولاية الأندلس انفردت بالسلطان واستأثرت بالحكم ، فكانت وهى الولاية الأفريقيه المتفرعة عن الأمبراطورية أو الخلافة العربية ، تعين ولاة الأندلس وتعزلهم وتقربهم وتقصيهم دون أن تتحرى رأى السلطات العليا ودون أن تستمد الأذن بما تتخذ من قرارات وإجراءات

وظلت الأمور تجرى فى جنوب فرنسا على هذا النحو حتى ولى الحكم فى الأندلس القائد الباسل والجندى المغوار « ابن السمح التجيبى » ، فرأى بثاقب فكره وسداد رأيه أن الولايات الفرنسية فى حاجة إلى نوع جديد من الحكم لم تألفه الأندلس من قبل ، فرحل بشخصه إلى تلك الأقطار فى سنة ٧٢٣ ميلادية وتفقد الجند وعرض الجيوش ، ثم عقد النية وهو هناك على أن يغزو بعض البلاد التى ينبعث منها التمرد ويترعرع فيها العصيان فقصد إلى مدينة تولوز بعد أن هزم جيوش الفرنجة فى عدة وقائع ، وحاصر هذه المدينة المنيعة وضربت جيوشه تحت أسوارها ، حيث نشبت معارك عنيفة استشهد خلالها السمح فاختار الجند مكانه عبد الرحمن الخافقى وكان من أقدر الولاة على سياسة الملك وإدارة البلاد ولكنه عزل

بعد ولايته بقليل وعين بعده خمسة من الولاة لم يمض على ولاية أحدهم أكثر من شهر أو شهرين ثم أعيد عبد الملك مرة أخرى فلم يستطع كبح جماح الفرنجة في الولايات الفرنسية فقوى ساعدهم واشتدت حركة التمرد بينهم وبات سلطان العرب محفوفا في هذه الأقاليم بالخطر وكان يتزعم الفرنجة ويقود حركة العصيان الزعيم الفرنجي القوي اليأس « بلايو » الذي خدعته هذه الملابسات وغرته تلك الفورة التي قام بها أنصاره ، فأعلن عصيانه وزحف بعصاباته في سنة ٧٣٠ ميلادية للاستيلاء على بعض البلاد الفرنسية الشرقية ، ولكن لحسن حظ الأندلس ولسوء طالع هذا الثائر كانت حكومة القيروان قد شعرت بسوء الحال وقدرت ما تفضي إليه هذه الاضطرابات من مخاطر فاختارت (ابن الهيثم) لولاية الأندلس وقيادة الجيوش في جنوب فرنسا لقمع الثورة وإطفاء نار الفتنة ، فقدم هذا القائد القوي الشكيمة الشديد البأس إلى الأندلس في أواسط سنة ٧٣٠ ولم يستقر في الأندلس أياما بل نزع إلى الشمال ، وقاد الجيش العربي الباسل في عدة ملاحم فيما وراء جبال البرينيه ، فاستطاع المحافظة على النظام في الولايات الجنوبية ثم استطاع أن يجد في الفتح والغزو إلى أن تم له الاستيلاء على مدن ليون ، وماسون ، وشالون الواقعة على نهر السأون ، ثم غزا مكمن الفرنجة وعش العصابات التي طالما أقلقت العرب على الحدود ، في بلدة يون وبلدة أوتون ، ولم يكتف بهذا الفتح ويقنع بما صادفه من انتصار بل واصل زحفه إلى الشمال حتى غزا بعض البلاد الفرنسية الأخرى وفرض عليها الجزية .

ولما تم هذا النصر لابن هيثم عاجلته المنية فأعيد عبد الرحمن الخافقي إلى حكم الأندلس ففرح الأندلسيون لهذا الاختيار السديد واغتبطوا له وعم التفاؤل في ربوع الجزيرة ذلك لأن الخافقي كان كما قدمنا حازم الرأي صفي النفس فضلا عن حكمته وعدله ، فكان أقدر الحكام جميعا وأبرع القواد قاطبة .

طاف الخافقي إثر ولايته الأندلس بجميع ربوعها وأقاليمها ليستمع إلى الشكايات ويقر العدالة ويرفع الحيف فعزل كثيرين من الحكام المركزيين الذين أنس منهم ظلما أو انحرافا ، وأعاد كثيرا من البيع والكنائس إلى المسيحيين ـ وكان الولاة قد استولوا عليها ـ بعد عهد وحالفة ، ونظم بيت المال وأقام الميزان وحكم بالقسطاس المستقيم .

ثم تحول إلى الحدود الشمالية لتحصينها وسد خطرها ، فألف جيشا عرمرما للزحف على تولوز ليستكمل ما عجز القواد من قبله على استكماله ويغزو ما قصروا عن غزوه

وكان حاكم (مردان) الواقعة على الجانب الأقصى من جبال البرينيه في ذلك الحين عثمان ابن أبي النعماء ويسميه الفرنجة في تلك الأصقاع « بونوتسا » قد تزوج من فرنسية نبيلة تدعى لامبيج وهي ابنة دوق أكيتين ، وأبرم مع حميه الدوق معاهدة دفاعية هجومية ثم

أعلن استقلاله وعصيانه على إمارة الأندلس ، ولم يكن عبد الرحمن الخافقي من هذا الطراز الذي سهّر أعصابه لمثل هذا الحادث ، فأوفد جيوشه لاخضاع هذا التمرد وإعادة فتح بلاده فاتجهت الجيوش إلى الشمال حتى بلغت قلعة لوبس وهي التي أطلق عليها العرب إسم ، الباب ، لأنها على رأس أحد مسالك جبال البرينيه ، حيث يقيم مومى وزوجه ، ففر الوالي واعتصم بالجبال فتأثره فرسان العرب حتى قبضوا عليه وقتلوه جزاء خيانته وتمرده على حكومته ، أما زوجه فقد أبت النخوة العربية إلا أن تحملها موفورة الكرامة محترمة الجانب إلى الخافقي فأرسلها إلى دمشق حيث اعتنقت الإسلام وتزوجت من أحد أبناء هشام

ولما تمت هزيمة الفرنجة في جبال البرينيه بعد قتل مومى ، رأى عبد الرحمن الخافقي أن يرحل إلى تلك الأصقاع ويقود الجند بنفسه خلال ولايتي نافار والأراغون ، فلما وصل إلى هناك تجدد نشاط الجيش ، وانبعثت في صدور الجند روح جديد من التضحية والاقدام ، واتجه الخافقي إلى الشمال في صميم الأرض الفرنسية ، فبلغ وادي ببجوراه وسهول بيارن في ربيع سنة ٧٣٢

وفتح مدينة (ارلز) بعد معركة دموية مع الجيوش الفرنسية ثم استولى على ضفاف نهر الرون وواصل الزحف شمالا إلى أن دخل مدينة بوردو بعد قتال عنيف تمت فيه هزيمة الجيوش الفرنسية التي يقودها الدوق (كيتين) سالف الذكر

ولم يقنع عبد الرحمن الخافقي بما أحرز من نصر بل واصل الزحف حتى فتح ولاية برغونيا فاستتب الأمر للعرب وخضعت البلاد للجيوش المظفرة

وهناك على ربى هذه البلاد رفرف العلم الأندلسي عزيز الجانب موفور السلطان ليسجل على صفحات التاريخ هذه القصة المجيدة من الفتوحات العربية ، وليثبت الخالف أن المدنية العربية بلغت أوجها ، وتراءت الى أبعد حدودها حين كانت أوروبا ماتزال غارقة في بحار الجهالة ، متخبطة في دياجير الهمجية والفوضى؟

عمر بن طلحة

جمال الدين الأفغانى -١

هذا رجل من طراز غير طراز هؤلاء الناس الذين يأكلون ويتمتعون - رجل خلق ليكون زعيم أمم لا زعيم أمة فوهب الله له صدق اليقين وقوة الحجة وفصاحة اللسان وشرف النفس وصلابة الرأى .

رجل يجىء من بلاد الأفغان فى أواسط آسيا إلى مصر فيهز النفوس هزاً : يوقظ النوام ويقلق بال الحكام ويعلن الحرب على الخمود والجمود ويدعو الناس أن يفتحوا أعينهم لما استنبطته العقول الأوربية من الآراء ، وأن يخلعوا الأكفان البالية فيعيدوا للدين شبابه وللوحدة الإسلامية عنفوانها وأن ينقوا الحضارة الإسلامية والعلوم الشرقية من الأدران والخرافات وأن يقهروا بها قوى أوربا بالشرق والشرقيين والإسلام والمسلمين : ويلتف حفنة الناس حول علمه ويهجمون على أوكار الجهل والفناء ويطعنون الحزب الذى كان يقول (إنا وجدنا آباءنا على أمة) فلا يعودون إلا مظفرين .

لست أريد فى مقالى هذا سرد تاريخ جمال الدين وتحقيق موطنه ونشأته وإحصاء الأدوار المختلفة التى مرت بها حياته فذلك قد تناولته بعض المقالات فى الصحف ورسائل بعض الأدباء وإن كانت هذه البحوث قاصرة لم تتناول أثره العميق فى مصر خاصة من الناحية السياسية ولم تفصلها تفصيلا دقيقا ولو فعلت ذلك لعدته زعيم الزعماء فى مصر فهو وإن كانت سياسته إسلامية شرقية إلا أن الأحداث المصرية شغلت أكبر ناحية من حياته العملية حتى أقلق بال الإنجليز فى مصر حين أقام بها وفى أوربا بعد ذلك لما ألقى به تيار المقادير فى باريس ولندرة والآستانة . وكنت أود لو تناول المؤرخون والساسة هذه الناحية ذات الأثر العميق فى المسألة المصرية والتى نبهت الأذهان للقضية المصرية وشغلت أفكار المصريين بالجهاد المتواصل . ولما كانت هذه الصحيفة بعيدة عن السياسة ولم أكن أنا من السياسيين رجوت أن يدرس بعض الكتاب (مجموعة العروة الوثقى) ويستخرج من تضاعيفها تاريخا هائلا للمسألة المصرية وبذلك يحل السيد جمال الدين المحل اللائق به بين المجاهدين المصريين .

إنما قصارى إبراز الناحية الخلقية والاجتماعية والدينية لهذه النفس الكبيرة

التى فارقت الدنيا من نحو ثمان وثلاثين سنة وتركت صدى أثر أثراً عميقاً فى إنهاض الأمم الاسلامية وجعلها لا تفتأ تذكر داءها ودواءها عسى أن تحقق ما كان يرجوه لها نابغة الأفغان .

كان العالم الاسلامى فى القرن التاسع عشر جميل الشكل فى ظاهره له خلافة إسلامية هائلة ضخمة مقرها الأستانة تضم إليها قسما كبيراً من العالم الاسلامى ويدين لها بالولاء أغلب الخارج عن سيطرتها من المسلمين ولكنها فى الباطن فى أتون ملتهب من الدسائس الاستعمارية والتمزيق الذى كان يتذر بالخراب يده جنود العلماء واستحواذهم على السلطان فى مقر الخلافة وفى غيرها ثم تنازع الأمراء فى جهات مختلفة وكان يكفى للفتك بالمصلحين وشاية غمام أو أضغاث أحلام يراها فى النوم مشهود فيستشيط السلطان غضبا ويقضى على كل من توهمهم غير مخلصين .

وكان المسلمون تتملك نفوسهم آراء المتصوفة الذين يذكرون الموت وأهواله والقبر وآفاته أكثر مما يذكرون عز الاسلام وفتوحه وإباء المسلمين .

وكانت دراسة الكتب على نحو ما كان بالأزهر تقليدية ، حسب العالم أن يكون حاكيا لما فى الشروح والحواشى دون استنباط أو اجتهاد وقد أقفل المفتون باب الاجتهاد فكل عالم يرد فى الكتب بدعة وكل عقل يجتهد ويدعو الناس إلى الأخذ بأسباب الحياة الجديدة الناقمة ملحد فى الدين ، وحسبك أن تعرف أن مدافع نابليون كانت تفتك بالمصريين بينما هم ينتظرون الفرج من قراءة البخارى فى أركان الجامع الأزهر وأن عرابى باشا كان واثقا من النصر لأن مدافعه كانت تسمى بأسماء الأولياء والأبدال .

تحدر السيد جمال الدين من أسرة شريفة فى بلاد الأفغان ترتقى إلى الحسين بن على رضى الله عنه ودرس العلوم العربية والشرعية والعقلية وكان شديد الميل إلى الفنون العسكرية ثم صار قائدا فى بعض الحروب الأفغانية فتكونت من كل أولئك عقلية عنيفة حادة مستنيرة مع ذكاء فطرى وتاد ونفوذ إلى الأعماق فى كل ما مر عليه من الشئون ثم لأجل أن يؤدى رسالته على وجهها كان لا بد له من دراسة الشئون الاسلامية فى أوطانها فخرج من بلاده إلى الحجاز ليحج وظل يتنقل فى بلاد العرب عاما كاملا ثم عاد إلى بلاده وبعد أحداث ونقل جاء إلى مصر ثم عرج على الأستانة مقر خليفة آل عثمان ورأى بعينى رأسه فساد الأنظمة وتحكم المنافقين ولما ضاق صدره أشار عليه بعض الأوفياء أن يقصد مصر أكثر البلاد الاسلامية استنارة وأوفرها حظاً من الحضارة الحديثة ومعترك السياسة الاسلامية ومركز الدائرة لأقطاب الاسلام فألقى بها عصا التسيار سنة ١٨٧١ .

وفد على مصر فى أواخر عهد إسماعيل باشا والنفوس جياشة بالأمانى والآمال ، ولكن الألسنة معقولة فى عقالها والأزهر معقد الأنظار ولكن رجاله فى عالم آخر غير ما تتمخض عنه الحوادث وصفوة العلماء يبعدون أنفسهم خوف الفتنة ويلهون ثيابهم حتى لا يصيبهم رشاشها ويبغضون الصحافة والكتابة فى الصحف لأن ذلك لغو من اللغو وهذر من الهذيان فأطل عليهم جمال الدين من سماء بيانه وكان فى زى العلماء ثقافته من ثقافتهم غير أنها متحولة منقولة لا يتقيد بما تواضع عليه العلماء مما لم يجىء به القرآن الكريم و السنة الصحيحة فجذب إليه بعض أذكياء الشباب من طلبة الأزهر وبعضا من كتاب الصحف وأعيان المصريين وكان مجلسه فى قهوة متاتيا أمام حديقة الأزبكية أو فى المتنزهات أو فى منزله .

أخذ يسامر المستمعين بأسلوب قوى أخاذ ومنطق سليم فرأوا منه عجبا وسمعوا مالم تعهده آذانهم من حديث العلوم والآداب والمنطق والفلسفة وموقف المسلمين من علوم الغرب وسياسة أوربا فملك عليهم ألبابهم واستحوذ على مشاعرهم فلازموه أنى حل أو سار يذهبون إلى بيته ويتحدثون إلى العلماء وأولى الشأن عن آرائه ونظرياته فى إنهاض العلوم والأفكار والاحتكام إلى العقل فى كل ما يحدث من الأمور فاتصل خبره برياض باشا رئيس النظار فقربه إليه وحبب إليه الإقامة فى مصر وأجرى عليه عشرة جنيهات شهريا إكراما (لا فى نظير عمل ما) فاستقر فى مصر مدة ثمانى سنوات وهى أطول من أية مدة مكثها فى أثناء طوافه بأوربا والشرق لذلك كان نصيب المصريين من أفكاره الحرة وآرائه العالية أوفر من نصيب غيرها . هكذا يقول من أرخ له إن رياض باشا هو الذى أكرمه بهذه الهبة ولست أظنه إلا صادرا عن إرادة الخديوى إسماعيل فقد كان جمال الدين يساق انجلترا وسياستها فى مصر والهند بألسنة حداد وكان إسماعيل قد سئم مودة الأوربيين وبان له خداعهم ونواياهم الجهنمية فمد الحبل لجمال الدين حتى يستثير الشعب بهذا اللسان القوى المتنقل وأغضى عن حملاته عليه وانتقاده لسياسته حيا بهذا التشهير بسياسة أوربا . وفى العدد المقبل إن شاء الله سأبسط كيف نفذت أفكار هذا الزعيم العظيم فى قلوب المصريين فشغفوا بالحياة الدستورية وأهملت تلاميذه أقلامهم بأرشاده فكتبوا فى الصحف وعملوا على الإصلاح الاجتماعى فاطرد فى بلادنا إلى يوم الناس هذا

حسنين محمد مخلوف

المدرس بالمعلمين بطنطا